٣ – ألمْ تر إلى رَبك كيفَ مَدَّ الظِّل ؟ !

المكاشفة «مفاعلة» من الكشف . . فهل هو قصد إلى رؤية المخلوق للخالق ، كما يرى الخالق المخلوق ، مع اختلاف فى درجة الرؤية ؟ أو هو مجرد تأكيد وبيان قوة المعرفة ؟

وإذا كان الأمر مقتصرًا على المعرفة فما حدود المعرفة هذه ؟ أهى معرفة الذات أم الصفات ؟ أو هى مجرد وقوع تحت تأثير إدراك عام لقوة مكتملة الصفات ، صدر عنها كل هذه الكائنات ؟

أحسب أن الأمر فى كل ما ذهب إليه المفكرون لا يتجاوز (الإدراك العام) للقدرة الإلٰهية ، فيتحول مع الحس الإنسانى إلى حلم أو وهم ، أو مزيج من الحلم والوهم ، وقد يتحول مع قدر من الورع والتقوى إلى إحساس بالعجز . .

ولعل هذا سر التباين الكبير فى التعبير عن حقيقة « المعرفة » .

فأحيانًا نرى حجّرًا كاملا على مجرد السير فى هذه الطريق ، يقول

ابن عبد البر – ت سنة ٤٦٣ هـ – إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر؟

ويروى ابن عربى حديثًا لرسول الله ﷺ : إن الله احتجب عن العقول ، كما احتجب عن الأبصار ، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه . .

ويقال : إن هذا من المسلمات الإنسانية ، فقد جاء فى حكمة قدماء المصريين : محال على من يفنى أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لا يفنى . .

وفى هذا يقول الإمام الرازى :

نهاية إقدام العقول عقال

وأكثر سعى العالمين ضلال

ولم نستعد من بحثنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ومن أجل هذا حمل الفقهاء على رجال الكلام بعامة . . قال الإمام أحمد : لا يفلح صاحب كلام أبدًا ، ولا نكاد نرى أحدًا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل . . وقال الإمام مالك : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟

وأحيانًا نرى أن مجرد محاولة إثبات وجود الله إنما هو انتقاص من جلاله سبحانه ، لأنه متى خفى سبحانه حتى يحتاج إلى دليل يدل على وجوده ، على مجرد وجوده ، إنه سبحانه أظهر من كل موجود[1] .

---

(١) الأقوال مستقاة من (المنقذ من الضلال) – ص ٢٦٧ و ٢٧٠ و ٣٢٠ و ٣٢٨ ومن الفتوحات جـ ١ ص ٩٥ .

لكن ثمة فرقًا بين أن يكون ظاهر الوجود وأن يكون معروفًا حق المعرفة . . وبخاصة إذا كان هذا الظهور بالصفات لا بالذات ، أو بالأثر لا بالمؤثر . .

سئل أبو سعيد الخراز عن المعرفة ، فقال : « المعرفة تأتى من وجهين : من عين الجود ، وبذل المجهود » بمعنى أن العقل لا سلطان له ، إذ إن المعرفة رهن بفضل من الله ، يؤتيه من يشاء على قدر استعداد « العارف » من الطهارة النفسية والقرب من الله . .

قال أبو يزيد البسطامى : عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله . .

وقال أحمد بن مسروق : من لم يحترز بعقله من عقله لعقله هلك عقله .

وقال ابن عربى : المعرفة لا تنال بالنظر الفكرى ، ولا بضرورات العقول ، فلم يبق إلا أن يكون حصولها عن تجلٍّ إلٰهى فى حضرة غيبية بمظهر من المظاهر .

وقال ابن ماخلا : جلّت الحقيقة أن تكون البشرية محلا لتلقيها ، ولكن إذا أراد أن يوصلها إليك انبسط شعاع سلطان شعاعها ، فهد فى قلبك محلا لتلقيها ، فبها وجدتها ، لا بك :

أعارته طرفًا رآها به
فكان البصير بها طرفها

فكل دليل تستدل به على معرفة الله تعالى أنت أظهر منه ، لأن كل من كان له باب مفتوح فى صدره – كما يقول جلال الدين الرومى – يرى فى كل ذرة شمسًا ، فليس العلم بكثرة الرواية – كما يقول الإمام مالك – إنما هو نور يضعه الله تعالى فى القلب[٢] .

(٢) الأقوال السابقة من مصادر متعددة ، سبق ذكرها .

وقد أجمل هذه المعانى ناصر الدين أحرار بقوله : إن اللسان مرآة القلب ، والقلب مرآة الروح ، والروح مرآة الحقيقة الإنسانية ، والحقيقة الإنسانية مرآة الحق سبحانه ، والحقائق الغيبية تصل إلى اللسان من غيب الذات بقطع هذه المسافة البعيدة[٣] . .

وعلى هذا يمكن تفسير قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه : « سبحان من لم يجعل للخلق طريقًا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته »[٤] .

فالمعرفة اللائقة به سبحانه رهن بقوله : (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير)[٥] . . فما دامت الأبصار لا تدركه ، وما دام « لطيفاً » ، فكل المحاولات لن تصل إلى الحقيقة الكاملة ، وإن حققت برد « اليقين » .

لكن الله سبحانه دعانا إلى « النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى أنفسنا » ، طلبا للمعرفة ، أو طلبًا لليقين ، فكيف بنا نكتفى بمجرد الإحساس بالعجز ؟

يقول إخوان الصفا : لما كان الإنسان مندوباً إلى معرفة ربه ، ولم يكن له طريق إلى معرفته إلا بعد معرفة نفسه ، كما قال الله تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) ، أى جهل نفسه ، وكما قيل : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وقد قيل أيضًا : أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه – وجب على كل عاقل طلب علم النفس ، ومعرفة جوهرها وتهذيبها ، وقد قال الله

---

(٣) المكتوبات جـ ٢ ص ٣٣٧ .
(٤) اللمع – ص ٥٧ .
(٥) سورة الأنعام ١٠٣ .

تعالى : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها)[٦] . .

والبحث فى الذات الإنسانية وصولا إلى اليقين لا يخرج عما عناه الإمام علىّ حيث سئل : هل رأيت ربك حين عبدته ؟ فقال : ويلك ، ما كنت أعبد ربًّا لم أره . . قيل : وكيف رأيته ؟ قال : ويلك . لا تدركه العيون فى مشاهدة الأبصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان[٧] .

بل هو السبيل إلى الحقيقة الكاملة التى صورها « سيد الشهداء » فى مناجاته : « كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك » ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ عميت عين لاتراك عليها رقيبًا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيبًا »[٨] .

بل هو ما عبر عنه ابن عربى بقوله : « منا من جهل فى علمه ، فقال : « والعجز عن درك الإدراك إدراك » ، ومنا من علم فلم يقل مثل هذا ، وهو أعلى القول ، بل أعطاه العلم السكوت ، ما أعطاه العجز ، وهذا هو أعلم عالم بالله ، وليس هذا إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء . . . ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم »[٨] . .

وقد تأخذ من قول ابن عربى أن السبيل طهارة النفس بالعبادة ، وطهارة

---

(٦) رسائل إخوان الصفا - جـ ١ ص ٧٦ .

(٧) جامع السعادات للنراقى - الآداب بالنجف سنة ١٩٦٧ - جـ ٣ ص ١٦٧ و ١٦٨ .

(٨) فصوص الحكم - ص ٦٢ .

الروح بدوام الذكر ، حتى تتحول المعرفة إلى « اتصال » ، وهذا ما أقره الإمام محمد عبده فى حديثه عن « أرباب النفوس العالية والقلوب السامية » بأن « لهم مشاهد صحيحة فى عالم « المثال » لا تنكر عليهم ، لتحقق حقائقها فى الواقع »[٩] .

وقد يأخذ هذا الاتصال سبيل « الرؤيا » ، سواء فى نوم أو يقظة ، (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء)[١٠] .

والنوم يرخى ستارًا ويزيح حجبًا ، يقطع ما بين النائم وواقع الحياة ، لكنه لا يقطع ما بين النائم والحياة ، وقد يصل النائم بما وراء الواقع والحياة ، من أمور الغيب ، بدليل رؤيا يوسف عليه السلام ، ورؤيا السجينين ، ورؤيا الملك ، كما جاء فى [سورة يوسف] .

ومادام « الاتصال » بالغيب قد يتم فى حالة « إنسانية » يتخلص فيها الإنسان من قيود مادية ، فالعقل لا يستبعد أن يتم هذا « الاتصال » إذا تغلب الوجود الروحى على الوجود المادى فى حالة « صحو » ، مع الاستشراف إلى عالم ما وراء المادة ، والاستغراق فى تأمله ، والتسامى إليه .

ولا يعنى هذا التعرف إلى ذات الله ، ولكن الإحساس الكبير (بالحضور) الإلهى ، وهو « حضور » لا يخرج عن « الإنسان » ذاته ، بمعنى أنه يختلف من إنسان إلى آخر ، باختلاف « الاستعداد » .

وهذا ما بسطه الإمام الغزالى بقوله : « الرؤية حق ، بشرط ألا يفهم من

---

(٩) رسالة التوحيد - ص ١٠٠ و ١٠١ .

(١٠) سورة الشورى - ٥١ .

الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوًّا كبيرًا »[11] . فالرؤية ليست إلا تعبيراً عن كمال المعرفة .

و« المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع من علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، ويستدعى ذلك زمانًا لا محالة »[11] . حتى يتم صقل المرآة التى تعكس صورة الحقيقة الكاملة .

و« كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف ، يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره – مع ضعف بصره – سببًا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئًا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره – فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلٰهية فى نهاية الإشراق والاستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده – حتى إنه لا ضد له – عسىّ إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة عن قرب ، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر »[12] . .

---

(١١) إحياء علوم الدين – جـ ٤ ص ٣١٣ و ٣١٥ .

(١٢) إحياء علوم الدين – جـ ٤ ص ٣٢١ و ٣٢٢ .

« وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته ، فإنه فى حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ، ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس فى الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهى تابعة له ، فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها ، ومن هذه حاله فلا ينظر فى شىء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل ، من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر . . إلخ .

ثم إن المدركات كلها التى هى شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان فى الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا ، وهو مستغرق الهم بشهواته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته ، وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ، ولذلك إذا رأى - على سبيل المفاجأة - حيوانًا غريبًا ، أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقًا للعادة عجيبًا ، انطلق لسانه بالمعرفة ، طبعًا ، فقال : « سبحان الله » . . وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ، ولو فرض أن أكمه بلغ عاقلا ، ثم انشقت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة ، لخيف على عقله أن ينبهر ، لعظم تعجّبه من شهادة هذه العجائب لخالقها »[١٢] .

وبهذا التصوير النفسى الدقيق يصبح « الحضور » حضور « وجود » ، لا حضور « ذات » ، ولهذا احتاج « العارف » إلى معاناة ، للتخلص من « علائق الدنيا والتجرد للطلب » . .

لما سئل رسول الله - ﷺ - عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعال : (فمن

---

(١٢) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٣٢١ و ٣٢٢ .

يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)[١٣] – قال : « وهو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » ، فقيل : وما علامته ؟ قال : « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » ، وهو الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام : « إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رشَّ عليه من نوره » ، فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف . . وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين ، ويجب الترصد له ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها »[١٤] .

وقد حاول ابن عربى استيحاء هذا « النور » الذى كشف الله به « الظلمة » ، فجمع بينهما فى محاولة لتصوير الطريق إلى الله ، مستهديًا بالآية الكريمة : (ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكنًا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً)[١٥] – فقال رحمه الله : « باسم النور وقع الإدراك ، وامتد هذا الظل على أعيان الممكنات فى صورة الغيب المجهول ، ألا ترى الظلال تضرب إلى السواد ، تشير إلى ما فيها من الخفاء ، لبعد المناسبة بينها وبين أشخاص من هى ظل له ؟ . . فما يعلم من العالم إلا قدر ما يعلم من الظلال ، ويجهل من الحق على قدر ما يجهل من الشخص الذى عنه كان ذلك الظل ، فمن حيث هو ظل له لا يعلم ، ومن حيث ما يجهل ما فى ذات الظل من صورة شخص من امتد عنه يجهل من الحق ، فلذلك تقول : إن الحق معلوم لنا من وجه ، مجهول لنا من وجه (ألم تر إلى ربك كيف مد

---

(١٣) سورة الأنعام – ١٢٥ .

(١٤) المنقذ من الضلال – ص ٧٥ و٧٦ .

(١٥) سورة الفرقان – ٤٥ و٤٦ .

الظل ، ولو شاء لجعله ساكنًا) ؟ أى يكون فيه بالقوة ، يقول : ما كان الحق ليتجلى للممكنات حتى يظهر الظل ، فيكون كما بقى من الممكنات التى ما ظهر لها عين فى الوجود ، (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) ، وهو اسمه النور الذى قلناه ، ويشهد له الحس ، فإن الظلال لا يكون لها عين بعدم النور ، (ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا) ، وإنما قبضه إليه لأنه ظله ، فمنه ظهر ، وإليه يرجع الأمر كله .

فلما أوجد الحق الظلال ، وجعلها ساجدة متفيئة عن اليمين والشمال ، إلا دلائل لك عليك وعليه ، لتعرف من أنت ، وما نسبتك إليه ، وما نسبته إليك ، حتى تعلم من أين ، أو من أى حقيقة إلهية اتصف ما سوى الله بالفقر الكلى إلى الله ، وبالفقر النسبى بافتقار بعضه إلى بعض ، وحتى تعلم من أين ، أو من أى حقيقة اتصف الحق بالغناء عن الناس ، والغناء عن العالمين ، واتصف العالم بالغناء ، أو بغناء بعضه عن بعض من وجه ما هو عين ما افتقر إلى بعضه به »[١٦] . .

والإحساس بالافتقار إحساس بالعجز . . ولكن حين يقوى الإنسان على حاجاته المادية ، ويعيش لما هو أسمى ، متنورًا النور الإلٰهى ، فقد يصبح فى حالة « اللا إنسان » ، فإذا عبر عن هذه الحالة عبر بما لم نألف ، وما يخالف « قيمنا » المعتادة ، ومن ثم يناله منا التكفير والقتل والتمثيل ! !

* * *

ومن عجيب الأمر أن المفكرين الإسلاميين – من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، كما اعتاد المحدثون أن يقولوا – متفقون على ظاهرة « التسامى وكمال

(١٦) فصوص الحكم – ص ١٠٢/١٠٥ .

المعرفة » ، متفقون على مشروعية « الاتصال » و « الرؤية » . . فابن تيمية – الذى حمل « السيف » فى وجه الحلاج وابن عربى ومن نحا نحوهما – يقول : « إنها مشاهدة قلبية ، تغلب عليه حتى تفنيه عن الشعور بحواسه ، فيظنها رؤية بعينه »[17] . . ويضيف : « فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلبه على قلبه ذكر الله ، ويستغرق فى ذلك ، فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ، ويفنى ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت ، وأن نفسه فنيت ، حتى يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله »[18] . .

ويقدم الدليل من واقع القول المأثور : « كما فى الصحيحين ، عن النبى – ﷺ – أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدّثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » . . وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنها تجلى لهم أمور صادقة . . وفى الترمذى ، عن أبى سعيد ، عن النبى – ﷺ – أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) . وقال بعض الصحابة : أظنه – والله – للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم وفى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة ، عن النبى – ﷺ – أنه قال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » ، وفى رواية : « فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى » ، فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به . .

وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه ، وقال

---

(١٧) مجموعة الرسائل الكبرى – جـ١ ص ٢٩٠ .

(١٨) المصدر السابق – جـ١ ص ١٥٠ .

ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكًا يسدده » ، وقال الله تعالى : (نور على نور) ، نور الإيمان مع نور القرآن ، وقال تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) ، وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن ، شهد الله فى القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان ، وهذا القدر مما أقرّ به حذاق النظار لما تكلموا فى وجوب النظر وتحصيل العلم ، فقيل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر .

وهذا أقر به حذاق النظار ، متقدميهم كالكيا الهراس والغزالى وغيرهما ، ومتأخريهم كالرازى والآمدى ، وقالوا : نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضرورى بما يحصل لنا بالنظر »[١٩] .

ومع هذا ، فإنه يعود ليحمل على « القوم » بدون دليل ، أو بدليل أقرب إلى الافتراء . . يقول : « وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول : أنا الحلاج ، فيرونه على صورته عيانًا ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوق ، بعد أن مات ، كان يأتى أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة ، وأرانى صادق من أصحابه الكتاب الذى أرسله ، فرأيته بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن »[٢٠] .

ولا أحد يدرى كيف عرف أنه خط الجن ، وإذا كانت الجن من عالم غير مرئى ، فإن الاعتراف بمراسلتهم لاينفى المراسلة مع غيرهم .

---

(١٩) مجموعة الرسائل الكبرى - جـ١ ص ٥١ و٥٣ .

(٢٠) مجموعة الرسائل الكبرى جـ١ ص ٧٢ .

والشيخ النَّراقي – أحد أعلام الشيعة – يقول : فكما لا تجوز رؤية الله سبحانه فى الدنيا بالعين والبصر ، فكذلك لا تجوز فى الآخرة ، وكما تجوز رؤيته بالعقل والبصيرة لأهل البصائر – أعنى غاية الانكشاف والوضوح ، بحيث تتأدى إلى المشاهدة واللقاء – فكذلك تجوز رؤيته فى الآخرة بهذا المعنى ، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة ، دون الجسد[٢١] . .

ويهتدى إلى العامل النفسى عن طريق بيانه آداب قراءة القرآن ، إذ يقول :

درجات القراءة ثلاث :

الأولى ، وهى أدناها ، أن يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى ، واقفًا بين يديه ، وهو ينظر إليه ، ومستمع منه ، فتكون حاله – على هذا التقدير – التملق والسؤال والتضرع والابتهال . .

الثانية : أن يشهد بقلبه كأن ربه يخاطبه بألطافه ، ويناجيه بإحسانه وإنعامه ، فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والإصغاء . .

الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم ، وفى الكلمات الصفات ، فلا ينظر إلى نفسه وإلى تلاوته ، ولا إلى تعلق الإنعام به ، من حيث إنه منعم عليه ، بل يكون مقصور الهمّ على المتكلم ، موقوف الفكر عليه ، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره ، وهذه درجة المقربين والصديقين »[٢٢] . .

وهذه الدرجة عبّر عنها إخوان الصفا – الذين يمثلون الفكر المادى والفلسفى إلى حد ما – بقولهم : إنهم يرونه رؤية الحق فى جميع تصرفاتهم ، ويشاهدونه فى كل حالاتهم ، لا يسمعون إلا منه ، ولا ينظرون إلا إليه ، ولا يرون غيره على

(٢١) جامع السعادات – جـ ٣ ص ١٦٦ ولا نسلم بما جاء به .

(٢٢) جامع السعادات – جـ ٣ ص ٣٧٦ .

الحقيقة ، فمن أجل ذلك انقطعوا إليه عن الخلق ، واشتغلوا بالخالق عن المخلوق[٢٣] .

ويستشهد إخوان الصفا بقول أرسطاطاليس : إنى ربما خلوت بنفسى ، وخلعت بدنى ، وصرت كأنى جوهر مجرد بلا بدن ، فأكون داخلا فى ذاتى ، خارجًا عن جميع الأشياء ، فأرى فى ذاتى من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجبًا باهتًا ، فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الفاضل الشريف[٢٤] . .

ولا يبعد عن هذا ما ذهب إليه السهروردى – وهو من العلماء الذين ندبوا أنفسهم لصحبة المتصوفة ، وتسجيل أقوالهم وأخبارهم ، بقوله : « من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة ، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى ، وكمال الزهد فى الدنيا ، فلما صفت أسرارهم تشكلت فى سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة ، فنزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ، ولا يكون ذلك كلامًا يسمعونه ، بل كحديث فى النفس ، يجدونه برؤية موافقًا للكتاب والسنة ، مفهومًا عند أهله ، موافقًا للعلم ، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم ، ومناجاة سرائرهم إياهم ، فيثبتون لأنفسهم مقام العبودية ، ولمولاهم الربوبية ، فيضيفون ما يجدونه إلى أنفسهم وإلى مولاهم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله ، إنما هو علم حادث أحدثه الله فى بواطنهم »[٢٥] . .

ومن هؤلاء القوم من « إذا صفا باطنه قد يغيب فى الذكر من كمال أنسه ،

---

(٢٣) رسائل إخوان الصفا - جـ ١ ص ٣٧٦ .

(٢٤) المصدر السابق جـ١ ص ١٣٨ .

(٢٥) عوارف المعارف - ص ٨٠ .

وحلاوة ذكره حتى يلتحق فى غيبته فى الذكر بالنائم ، وقد تتجلى له الحقائق فى لبسة الخيال أولا ، كما تنكشف الحقائق للنائم فى لبسة الخيال . . ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبعث من نفس الرائى فى المقام ، من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة .

وقد تتجرد للذاكر الحقائق من غير لبسة المثال ، فيكون ذلك كشفًا وإخبارًا من الله تعالى إياه ، ويكون ذلك تارة بالرؤية ، وتارة بالسماع ، وقد يسمع من باطنه ، وقد يطرق ذلك من الهواء ، لا من باطنه ، كالهواتف ، يعلم بذلك أمرًا يريد الله إحداثه له أو لغيره ، فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدًا ليقينه ، أو يرى فى المنام حقيقة الشىء »[٢٦] . .

ويؤيد هذا التصوير قول الإمام القشيرى : « وتحقيق الرؤيا خواطر ترد على القلب ، وأحوال تتصور فى الوهم ، إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار ، فيتوهم الإنسان عند اليقظة أنه كان رؤية فى الحقيقة . . وإنما كان ذلك تصورًا وأوهامًا للخلق تقرّرت فى قلوبهم ، وحين زال عنهم الإحساس الظاهر تجردت تلك الأوهام عن المعلومات بالحس والضرورة ، فقويت تلك الحالة عند صاحبها ، فإذا استيقظ ضعفت تلك الأحوال التى تصورها ، بالإضافة إلى حال إحساسه بالمشاهدات ، وحصول العلوم الضرورية ، ومثاله : كالذى يكون فى ضوء السراج ، فيتقاصر نور السراج بالإضافة إلى ضياء الشمس ، فمثال حال النوم كمن هو فى ضوء السراج ، ومثال المستيقظ كمن تعالى عليه النهار ، فإن المستيقظ يتذكر ما كان متصورًا له فى حال نومه »[٢٧] . .

---

(٢٦) المصدر السابق – ص ٢١٦/٢١٧ وانظر الفتوحات جـ ٤ ص ٣٧٦ .

(٢٧) الرسالة القشيرية – جـ ٢ ص ٧١٥ .

وكما سبق القول : ما يحدث فى النوم يمكن أن يحدث فى اليقظة ، إذا وصل المرء إلى الحد الفاصل بين المادة والروح ، أو قل إذا سما المرء على غرائزه وعاداته ، وقوى اتصاله بخالقه ، عند ذلك يتخلص المرء من الواقع الذى يعيشه ، بل من الوجود المادى كله ، ويصبح فى عالم الروح ، أو قل عالم الوهم ، وهو بالوهم يخلق كل إنسان فى قوة خياله مالا وجود له إلا فيها »[٢٨] ، كما يقول ابن عربى

فوقتا يكون العبد ربًّا بلا شك
ووقتًا يكون العبد عبدًا بلا إفك
فإن كان عبدًا كان بالحق واسعًا
وإن كان ربًّا كان فى عيشة ضنك
فمن كونه عبدًا يرى عين نفسه
وتتسع الآمال منه بلا شك
ومن كونه ربًّا يرى الخلق كله
يطالبه من حضرة المُلك والمَلك
ويعجز عما طالبوه بذاته
لذلك بعض العارفين به يبكى[٢٨]

(٢٨) فصوص الحكم - ص ٨٨ و ٩٠ وانظر الفتوحات - جـ ٢ ص ٣٢٥ .

وقد نفهم من شعرا ابن عربى أنه كلما ازدادت النفس غنى ازدادت أعباؤها ، لكنا نفهم – فى الوقت نفسه – أن رحلتنا داخل النفس هى رحلتنا خارج النفس ، فالنفس مرآة الكون ، أو قل : إن المرائى الكونية تتشكل فى النفس على وفق انفعالاتها ، وقد تهم النفس مالا تحسه ، وقد يلتبس الحس بالخيال ، وقد يقوى الحس بما لا نجرؤ على التعبير عنه . .

رفع إلى أبى صالح عبد القادر الجيلى رجل ادعى أنه رأى الله عز وجل بعينى رأسه ، فقال : أحق ما يقولون عنك ؟ قال : نعم . . فانتهره ونهاه عن هذا القول ، وأخذ عليه ألا يعود إليه . . فقيل للشيخ : أمحق هو أم مبطل ؟ فقال : هذا محقّ ملبّس عليه ، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجلال ، فظن أن بصره رأى ما شهده ببصيرته ، وإنما رأى بصره ببصيرته فقط ، وهو لا يدرى ، قال الله تعالى : (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان)[٢٩] .

تعبير دقيق يمثل أن حالة الاستغراق فى الشىء يجسّده ، لأنه ينسلخ عن عالمه ، ويعيش عالم محبوبه الذى أخذ عليه الحس والفكر والوجدان ، « مثل من يحكم برؤية صورة زيد فى المرآة . . هذا الحكم غير مطابق للواقع ، فإنه لم ير فى المرآة صورة زيد أصلا ، لأنه لا صورة فى المرآة قطعًا حتى ترى ، ولا يقال لهذا الشخص فى العرف أنه كاذب ، وإن لم يكن مطابقًا لنفس الأمر ، فهو معذور فى هذا الحكم ، وعلامة الكذب مرتفعة عنه »[٣٠] . . و « كثيراً ما يستتر عن نظر المحب غير محبوبه ، بواسطة استيلاء حب محبوبه عليه ، فلا يرى غير محبوبه ، لا أنه ليس فى نفس الأمر غير محبوبه ، فإنه مخالف لحكم الحس

(٢٩) الطبقات الكبرى – جـ١ ص ١٢٧ .

(٣٠) المكتوبات – جـ ١ ص ٤٤ .

والعقل والشرع ، وتصير هذه المحبة أحيانًا باعثة على الحكم بالإحاطة والقرب الذاتيين »[٣١] . . ومن ثم يكون « اليقين الوجدانى أنهم يرونه جل شأنه ، ويجدون فى أنفسهم الالتذاذ المتريث على الرؤية على وجه الكمال ، ولكن المرئى لا يكون مدركًا لهم أصلا ، ولا يحصل لهم شىء منه قطعًا غير وجدان الرؤية ، وغير الالتذاذ به »[٣٢] . .

ومن هنا كان الحكم بعجز العقل ، إذ الأمر مجرد ذوق وحس ووجدان . .

قال رجل للنورى : ما الدليل على الله ؟ قال : الله . قال : فما العقل ؟ قال : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .

وقال ابن عطاء : العقل آلة العبودية ، لا للإشراف على الربوبية[٣٣] . .

فعلى الذين يسارعون بالتكفير أن يضعوا هذا الواقع فى حسابهم ، وإلا ، فإذا كان الأمر مجرد منطق جدلى فقد جوز القوم الرؤية بالعقل ، وأوجبوها بالسمع – بالإضافة إلى ما عنينا بتفصيله – فقالوا : « إنما جاز فى العقل ، لأنه موجود ، وكل موجود فجائز رؤيته ، إذا وضع الله تعالى فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : (أرنى أنظر إليك)[٣٤] جهلا وكفرًا . . ولما علق الله تعالى الرؤية بشريطة استقرار الجبل بقوله : (فإن استقر مكانه فسوف ترانى)[٣٤] – وكان ممكنًا فى العقل استقراره

---

(٣١) المكتوبات – جـ١ ص ٤٣ .

(٣٢) المصدر السابق – جـ٣ ص ٦٠ .

(٣٣) التعرف لمذهب أهل التصوف – الكلا باذى – مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٦٩ ص ٧٨ و ٧٩ .

(٣٤) سورة الأعراف – ١٤٣ .

لو أقره الله – وجب أن تكون الرؤية المعلقة به جائزة فى العقل ، ممكنة . . فإذا ثبت جوازه فى العقل ، ثم جاء السمع بوجوبه ، بقوله : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)[٣٥] . . وقوله : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)[٣٦] . . وقوله : (لِلَّذِينَ أحسنوا الحسنى وزيادة)[٣٧] ، وجاءت الرواية بأنها الرؤية ، وقال النبى ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون فى رؤيته يوم القيامة » ، والأخبار فى هذا مشهورة متواترة – وجب القول به ، والإيمان والتصديق له[٣٨] .

ومع هذا نقول : إن قدم الاستدلاليين خشبية ، والقدم الخشبية واهنة جدًّا . . كما قال جلال الدين الرومى ، لأنه – فى رأى ابن عربى – « لو كان هذا العلم الذى أعطاه التفكر فى الله نورًا ماطرأ على المحل ظلمة شبهة ، ولا ظلمة تشكيك أصلا ، وقد طرأت ، والظلمة ليس من شأنها أن تنفر النور ، ولا لها سلطان عليه ، وإنما السلطان للنور المنفّر الظُّلَم ، فدل ذلك على أن علوم المتكلمين فى ذات الله والخاضعين فيه ليست أنوارًا ، وهم يتخيلون – قبل ورود الشبهة – أنهم فى نور ، وعلى بينة من ربهم فى ذلك ، فلا يبدو لهم نقصهم حتى ترد عليهم الشبهة ، وما يدريك لعل تلك الشبهة التى يزعمون أنها شبهة هى الحق والعلم . . ثم إنه ما من مذهب إلا وله أئمة يقومون به ، وهم فيه مختلفون ، وإن اتصفوا جميعهم مثلا بالأشاعرة ، فيذهب أبو المعالى خلاف ما ذهب إليه

---

(٣٥) سورة القيامة – ٢٢ و ٢٣ .

(٣٦) سورة المطففين – ١٥ .

(٣٧) سورة يونس – ٢٦ .

(٣٨) التعرف لمذهب أهل التصوف – ص ٥٧ .

القاضى ، ويذهب القاضى إلى مذهب يخالف فيه الأستاذ ، ويذهب الأستاذ إلى مذهب فى مسألة يخالف فيها الشيخ ، والكل يدعى أنه أشعرى ، وكذلك المعتزلة ، وكذلك الفلاسفة فى مقالاتهم فى الله ، وفيما ينبغى أن يعتقد ، ولا يزالون مختلفين ، مع كون كل طائفة يجمعها مقام واحد ، واسم واحد[٣٩] .

(٣٩) الفتوحات – جـ ٣ ص ٨٢ .

obeikandl.com